د. حسين مؤنس

عودة العربى إلى مكانه فى التاريخ

ليلة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نامت مصر وأهلها على الحال الحزينة القلقة التى لم تعرف غيرها منذ يونيو ١٩٦٧ : العدو رابض على جزء كبير من أرض الوطن ، وقابض بيد من حديد على عنق قناة السويس ، ومدافعه موجهة إلى غربى القناة ، وجنوده متحصنون فى خط دفاعى قيل يومها إنه لا توجد على سطح الأرض قوة تستطيع أن تنال منه ، وقادة العدو هناك فى تل أبيب والقدس يخططون ويدبرون على أن قوة مصر – وقوة العرب تبعاً لذلك – قد تحطمت إلى الأبد ، وأن الوطن العربى أصبح بين يديه وكأنه كعكة لينة يقتطع منها ما يريد وقتما يريد . .

ومن وراء العدو الإسرائيلى وقفت أمريكا بقوتها العسكرية الهائلة ، ترسل إليه الشحنة بعد الشحنة من أسلحة رهيبة لم يسبق استخدامها حتى فى فيتنام ، بما فى ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ T.O.W. المضاد للدبابات وصواريخ وول – آى ومافريك وستاندارد وشرايك ، وما إليها مما كان الأمريكان يظنون أن أحداً لا يستطيع أن يقف أمامها . ولهذا اعتبر القوم فى إسرائيل أنفسهم القوة الوحيدة الجديرة بالذكر فى الشرق الأوسط ، واستقر فى نفوسهم أن ذلك يجعلهم سادة المنطقة الفعليين ، وأن مصيرها فى أيديهم ، ولا يمكن أن يجرى فيها شىء إلا بإذنهم وما يوافق

هواهم . بل لقد قال الكاتب الإسرائيلى وولتر لاكير (بعد حرب أكتوبر) : « كانت إسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند » .

وكان العالم كله قد سلم بهذه « الحقيقة » ، واعتبر قضية الشرق الأوسط قضية منتهية ، برغم الضجيج الكثير الذى يثيره العرب ، فهو ضجيج شعب مغلوب لا يريد أن يواجه الحقيقة أو يحاول تغيير ما حدث ، وسيخفت يوماً بعد يوم هذا الضجيج ، ثم يقبل العرب رافعين راية الاستسلام ، فيوقعون الشروط التى يمليها المنتصر . وفى هذا المعنى قال موشى ديان – وكان إذ ذاك فى أوج مجده الزائف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ – « إنها الحرب التى أنهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، ولا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان : ٢١ شارع كابلان ، القدس ! » . وهذه واحدة من كلماته الساخرة اللاذعة التى كان مولعا بإلقائها شمالا ويميناً ، وكان يحسب نفسه إذ ذاك فى طليعة القواد العظام الذين لن ينساهم التاريخ . .

حتى هيئة الأمم ، وهى الهيئة التى خلقت لتحرس السلام على الأرض وتحول دون الاستيلاء على الأراضى وضمها بالقوة ، سلم معظم أعضاء مجلس الأمن بأن الصورة التى صنعتها إسرائيل (وأمريكا) للمنطقة بعد حرب يونيو صورة نهائية وغير قابلة للتغيير . وصرح أحد مندوبى الدول الكبرى قائلا : غريب أمر هؤلاء العرب ! لقد انهزموا هزيمة قاصمة ، وأمثال هذه الهزائم لابدّ أن يعقبها الاستسلام ، فماذا ينتظرون ؟ وفى أى وهم يهيمون ؟ . . ألم يقرءوا شيئاً من التاريخ ليتعلموا منه شيئاً ؟ . .

وهذه قالة مريرة ، ولكنها تبدو طبيعية لمن لا يعرف العرب . ولقد صدق هذا الرجل إذ قال إن أمر هؤلاء العرب غريب ، لأنه فى الحقيقة لا يعرف العرب ، ولم يحاول أن يعرفهم ، لقد نشأ بينهم ولكنه لم يعش معهم ، لأنه كان صهيونيًّا قحًا ، والصهيونية عقيدة يهودية سياسية تزعم أن اليهودية قومية قائمة بذاتها ، ومادامت قومية فلابد أن يكون لها وطن ودولة ، وهذه الدولة لا تكون إلا فى فلسطين قلب بلاد العروبة ، ولابد أن تتوسع فى بلاد العرب حتى تزيلهم أو تجعلهم فى مراتب

الأرقاء والمستضعفين فى الأرض ، فهى إذن حركة لا عربية : قامت للقضاء على العرب والاستيلاء على ديارهم ، ولباب العقيدة الصهيونية هى كراهة العرب واعتبارهم جنساً يملك أراضى وثروات لا يستحقها ولابد لليهود من انتزاعها من أيديهم وتملكها .

تحت هذا الحجاب الصهيونى السميك نشأ موشى ديان ودافيد بن جوريون وموسى شرتوك ومناحم بيجين وإيجال آلون وجولدا مائير ودافيد أليعازر وشمعون بيريث ، ومن إليهم ممن رصدوا حياتهم لتنفيذ مشروع الدولة الصهيونية الخادع ، الذى صاغه من مادة الحقد على العرب صحفى فيناوى محموم عاش فى أسر هذا الوهم البغيض هو تيودور هرتسيل الذى قضى أيامه يجرى لاهثاً بين فيينا ولندن وباريس وبرلين والآستانة ، ومات بهذا الوهم آخر الأمر كما يموت الإنسان بداء عضال .

وعندما نفكر فى الموضوع ، وفى الظروف التى عمل فيها تيودور هيرتسيل وتربى فيها تلاميذه الذين ذكرنا بعضهم ، نجد أن هناك ما يفسر لنا لماذا نشأت فى ذهن هيرتسيل وماكس نور داو فكرة الاستيلاء على فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها . فخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذى نشأ فيه هيرتسيل وعمل ، كان الوجه الحقيقى للعرب – أصحاب فلسطين – قد اختفى وراء ركام الحوادث المتوالية التى تعاونت على إخفاء الوجه الحقيقى للعربى وانتهت بإخراجه من مسرح التاريخ ، وطرده إلى الصحارى أحياناً ، أو عبوديته فى أراضيه أحياناً أخرى .

لكى نفهم هذا نرتد إلى الوراء بضعة قرون لنمسك بالخيط من أوله .

ذلك أن العربى الأصيل – عربى الجزيرة – الذى يبهرنا بشخصيته وبسالته وملكته الشاعرية فى العصر الجاهلى ، ثم يبهرنا أكثر بما قام به من أعمال البطولة والذكاء والقدرة على القيام بالعجائب ، عندما دخل فى الإسلام وحمل رايته ونشره « من غانة إلى فرغانة » ، كما يقول كتّاب العرب ، أو من بلاد الموروس (الأندلس) إلى بلاد الموروس (جنوبى الفيليبين) – هذا العربى الذى ساد الشعوب الساكنة فى تلك الأقطار الشاسعة ، بالإيمان والشجاعة وروح السيادة

فى أكثر الأحيان ، وبالحرب فى أقلها ، هذا العربى الذى بلغ من عمق الأثر الذى تركه فى النفوس أن جعل معظم هذه الشعوب تنسى أصولها ولغاتها الأولى وأديانها الأولى وتتحول إلى شعوب جديدة ممن يمكن أن نسميهم العرب الجدد Neo-Arabs : عرباً عراقيين وعرباً شاميين وعرباً مصريين وعرباً بربراً وعرباً أندلسيين ؛ بل فى وقت ما فى منتصف العصر العربى نشأ عرب إيرانيون وعرب ترك – ثم انتهى بأن جعل هؤلاء جميعاً عرباً فحسب : تمثلهم فى كيانه الصغير بعملية ميتامور فوزيس فريدة فى نوعها فى التاريخ ، هؤلاء العرب وصلوا فى أواخر العصر الأموى إلى حالة إعياء مفرط : استنفدتهم الحروب وأكلتهم البلاد المتباعدة ، حتى أصبحت جزيرتهم قاعاً صفصفاً تقريباً ، كما يقول ابن خلدون . وعندما قامت الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) على أيدى عرب خراسان – لا على يد الفرس كما يظن – كان هذا آخر جهد قام به ذلك العربى المجيد ، الذى شاد من صروح التاريخ مالم يشده شعب آخر ، برغم أنه كان فى هيئته إنساناً صغير الحجم معروق الوجه نحيل الساقين كأنهما عصوان ، ولكنه كان يضم فى صدره – الذى كان قفصاً بلا لحم – قلب أسد لا يهاب الموت ، ويضم فى رأسه الصغير – نسبياً – حكمة باهرة وذهناً صافياً كأنه سماء الصحراء ، استقر فيه الإسلام فيضاً من النور والفهم لا يفنى ، وتجارب السنين القاسية السعيدة فى حياة الصحراء التى علمت الضبّ الحكمة وعلمت الجمل الصبر والحلم واحتمال المتاعب حتى كان يأكل الشوك ، وجعلت من الحصان صانعاً من صنّاع التاريخ . .

قام العربى الأصيل بدوره العظيم وانفق معظم نفسه فيه ، وبقيت من العرب الخلص جماعات صغيرة فى البلاد المفتوحة لم تلبث أن اندرجت فى السكان ، وبقيت بقية أخرى انسحبت إلى الجزيرة العربية وعاشت متناثرة فى أرجائها الواسعة ، وخرجت من ميدان التاريخ واندرجت تحت من نسميهم فى تاريخ الإسلام بالبدو أو الأعراب ، وسيكون لبعضهم ظهور جديد على مسرح التاريخ ، كما نرى فى هجرة بنى سليم وبنى هلال إلى مصر ثم إلى المغرب ، حيث قاموا بالتغريبة المشهورة التى أكملت عروبة المغرب ، فأدت بذلك خدمة جليلة لم يدرك أهميتها ابن خلدون

ولهذا حمل عليهم .

وفيما عدا تغريبة بنى سليم وبنى هلال تلك – وقد بدأت من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى – لم نعد نسمع للعرب الخلص ذكراً حتى مطالع العصر الحديث .

ولكن العربى عندما انتهى دوره وانزوى ، خلف فى الميدان أبناءه العرب الجـدد ، الذين استعربوا لغةً وحضارةً وأسلوبَ حياة ، حتى الذين لم يدخلوا فى الإسلام منهم وظلوا محافظين على أديان آبائهم ، استعربوا – كغيرهم – وانتسبوا إلى شجرة العروبة ، وساهموا فى بناء حضارتها بنصيب كبير .

ولكن هذه الشعوب العربية الجديدة – من العراق إلى ساحل المحيط الأطلسى وامتداداتها فى صقلية والأندلس والسودان الغربى والسودان النيلى – كانت فى حاجة إلى وقت طويل حتى تستتم تحولها وتتمثل الروح العربية السليمة وينصلح تكوينها . لأن التحول كان شاملا وعميقا يتناول الشخصية القومية كلها . فمصر – مثلا – بدأ الإسلام ينتشر فيها لأوائل الفتح ، ولكنها لم تصبح بلداً إسلامياً عربياً – أو مستعرباً – إلا فى أواخر العصر الفاطمى (أوائل القرن السادس الهجرى / منتصف الثالث عشر الميلادى)

خلال العصور التى استغرقها الدخول فى الإسلام والاستعراب ، خضع العرب لنظم سياسية غير سليمة أو غير شرعية ، فلا دولة بنى أمية ، ولا دولة بنى العباس ، ولا واحدة من الدول المحلية ، التى ظهرت ابتداءً من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وصلت إلى الحكم أو سارت فيه على الأسس الشرعية الذهبية التى قررها الإسلام ، وهى الشورى وإقامة العدل ورعاية مصالح الأمة والذياد عن حياض الإسلام والعمل على نشره فيما يلى حدود دار الإسلام ، فهى دول كانت تصل إلى السلطان بالعنف وتحكم الناس بالقهر والقسر ، ولا تخدم إلا أفراد البيت المالك ومن التف حوله من أنصار .

ولكى يستطيع المستبد أن يصل إلى السيطرة الكاملة على الناس ، عن طريق العنف والإرهاب ، لجأ إلى استخدام الجند المرتزق ، الجند المأجور الذى يعمل

لحسابه ، فاشترى الرجال الأشداء من أجناس عرفت بضخامة الأجسام والضراوة فى الحروب ، من الترك والسودان والرقيق الأوروبى المسمى بالصقالبة ، واشترى الأطفال الأجانب أو أخذهم بالقوة ورباهم تربية عسكرية ونشّأهم على الإسلام ليكونوا جنداً له ؛ وبهذا أصبح السلطان وجنده فى جانب والشعب المحكوم فى الجانب الآخر . وحرص السلطان فى كل بلد إسلامى على ألا يجند من أهل بلده ، خشية أن تدفع الجند العصبيةُ القومية إلى العطف على مواطنيهم

وهكذا نشأت الشعوب العربية فى ظل الإرهاب وعاشت فيه ، ونظرت إلى الحاكم – دائماً – على أنه عدو ، ونظر إليها الحاكم على أنها « رعية » أى قطيع من الغنم ، ينبغى أن تعيش كما يعيش قطيع الغنم ، وتتصرف على أنها غنم ، فإذا رفض واحد من الرعية أن يكون فى جملة الماشية قضى عليه فى الحال على أنه ثائر أو خارج على الطاعة أو متمرد . ولم ينج من هذا المصير الأسود إلا الشعوب التى عاشت فى بلاد فقيرة لا مطمع فى ثروة فيها مثل جزيرة العرب ، وتلك التى عاشت فى مناطق جبلية يصعب على جند الحاكم السيطرة عليها ، وشعوب الأطراف التى كانت تستطيع الفرار إلى المجاهل عند اقتراب جند الدولة .

هذه الظروف السياسية خلقت أوضاعاً اجتماعية وخلقية سيئة نجدها فى كل بلد إسلامى فى العصر الوسيط ؛ مثل النفاق واحتمال الظلم فى استكانة واستسلام ، والتهافت على الشىء القليل والتواكل والأنانية والكسل ، وخدمة الأقارب على حساب المال العام ، وعدم الشعور بالمجموع وما إلى ذلك . وكل هذه ليست صفات أساسية فى الخلق العربى أو الإسلامى ، ولكنها وسائل لجأ إليها الإنسان العربى لينجو بنفسه من مظالم قوم من الطغاة الجبابرة ، ممن سيطروا على خيرات البلاد وتقاسموها بالقوة ولم يتركوا للناس منها إلا القتات ، فعم الفقر الناس ، ومن الفقر نشأت أخلاق الفقر التى ذكرنا بعضها ، وهى أسوأ من الفقر نفسه .

وحرص أولئك الطغاة على أن يحرموا المواطن العربى من شرف الخدمة العسكرية ، زاعمين أنهم هم – وحدهم – الذين خلقوا للحرب ، ولهم – وحدهم – الحق فى نيل شرفها ، أما العربى فقد زعموا أنه لا يصلح للحرب ، ناسين أن سيوف العرب هى التى

فتحت بلاد أجدادهم وأخضعتها ، وأدخلتهم فى ميدان الحضارة وفتحت لهم سبل التقدم .

وبلغ الأمر ذروته عندما قبض المماليك على أزمة الحكم فى مصر والشام والعراق ونواح شتى من عالم الإسلام ، فقد استأثر أولئك المماليك بالحرب ، ووضعوا قوانين تحرم على العربى ممارستها ، بل كان المماليك فى مصر والشام لا يسمحون للمواطن باقتناء سكين كبير أو هراوة غليظة ، بل بلغ من انحطاطهم الخلقى وأنانيتهم أن اشترطوا أن يكون السلطان أجنبياً عن مصر غير مولود فيها ، بل هناك أمراء مماليك لم يؤيدهم الأمراء فى الوصول إلى السلطنة لأنهم ولدوا فى مصر أو الشام . .

والقصة طويلة ، وتحليلها والكشف عن حقائقها ميسور ، ولكننا نختصر القصة الطويلة وننتهى إلى خاتمتها التى تقول إن المماليك عندما اصطدموا بالأتراك العثمانيين انكشف أمرهم عن عجز عن الحرب وجبن وخيانة وكل ما يشين شرف المحارب . وتحت سنابك الخيل فى ميدان مرج دابق – شمالى حلب – مات آخر سلاطين المماليك قنصوة الغورى ، ذلك العجوز الظالم المغرور الذى تستطيع أن تقول إنه آخر رؤساء عصابة الطغاة التى حكمت قلب العالم الإسلامى ، على صورة هبطت بأغنى بلاد الله – إلى ذلك الحين – إلى درك أفقر بلاد الله ، وجعلت العربى – وهو من أعظم الفاتحين فى التاريخ – غير جدير بحمل السلاح . .

ولكن البذرة الأصيلة كانت ترقد فى أمان . .

تحت ركام الفقر والظلم والهوان التى فرضها المماليك ، رقدت جذور العربى الأصيل سليمة صافية يرويها أهل العلم والسير والتاريخ بماء الذكرى والأمل . وفى كيان العربى الذى خضع لحكم المملوك الصعلوك ، والعثمانى الذى وهبه الله صفات جميلة نادرة ولكنه حرمه من نعم السياسة وبعد النظر وفهم الشئون الاقتصادية . . فى كيان ذلك العربى ظلت كامنة ذكريات أجداده الميامين أبطال الفتوح الكبرى . ومع هذه الذكريات ، وبين شتى البذرة السليمة ، استكنت أيضاً صفات العربى الأصيل ، من بسالة وأريحية وأنفة وإيمان بالله ورسوله ، رمز خير ما وهب الله البشر من صفات وشمائل . ولقد أكثر الناس عندنا من الكتابة فى السيرة النبوية

الشريفة والفتوح ابتداءً من القرن الخامس ، وهذه السير الكثيرة التى بقيت لنا من العصور المتأخرة إنما هى الأوراق التى ظلت البذرة الكامنة ترسلها إلى النور لتحفظ بها كيانها .

وفى القرن الرابع الهجرى فتن الناس بشعر أبى الطيب الحسين بن أحمد المتنبى لأنه كان زهرة رائعة أطلعتها البذرة العربية الكامنة ، فكان شذاها يحيى الألوف بعد الألوف من الأجيال التى ذكرنا أنها نشأت فى ظلال اليأس والألم والحرمان . وعلى تلك الأوراق وتلك الزهرة وأمثالها ظلت بذرة العربى المقاتل الباسل الشهم الأبى حيةً لم يمسسها أذى ، فى انتظار اللحظة التى يأذن الله — سبحانه وتعالى — لها فتخترق طباق الثرى وتخرج للناس شجرة وارفة الظلال . .

ولقد أتيحت لها هذه الفرصة فى أثناء عصور الظلم أكثر من مرة ، ولكن الحكام الظالمين كانوا يسارعون إلى إطفاء الجذوة قبل أن تصبح لهبًا . وإذا كنا نقول إن الذين طردوا الصليبيين كانوا رجال اليقظة الكبرى من أتابكة الموصل ، ثم عماد الدين زنكى وابنه المجيد نور الدين محمود وخليفته العبقرى الفذ صلاح الدين يوسف بن شادى ، فاعلم أن أولئك جميعاً لم يقوموا فى حرب الصليبيين إلا بالجزء القليل الظاهر الذى سجله لهم المؤرخون ، وهم من صنائع السلاطين . أما الذى ضعضع قوى المستعمر الصليبى وأنهكه وأتى على خيرة رجاله ، فهو المجاهد العربى المجهول الذى قام بأكثر من النصف فى التمهيد لنصر حطين ، وظل يلهب ظهور المماليك ويذكرهم بواجب الجهاد الأقدس ، فلم يجد بيبرس ومَن بعده مناصًا من مواصلة الجهاد ليصبحوا أهلا للحكم .

وعندما اجتاحت العالم العربى موجةُ المغول ، كان المجاهدون العرب هم الذين صمموا على خوض المعركة الكبرى عند عين جالوت ، فى حين كان بكوات المماليك يفكرون فى الانسحاب إلى مصر ، حتى خجل السلطان سيف الدين قطز ووبخ فرسان المماليك على جبنهم وقال كلمته المشهورة : « تأكلون خبز المسلمين ولا تذبون عن ديارهم ؟ ! » ورمى بقلنسوته إلى الأرض وقرر دخول المعركة إلى جانب المجاهدين ، فخجل المماليك ودخلوا المعركة بعد أن كان المجاهدون

المجهولون قد كسبوا نصفها . ولهذا لم يغفر المماليك لقطز هذا التصرف برغم انتصاره فى المعركة ، وقرروا قتله قبل أن يدخل القاهرة ، فاغتالوه فى بلبيس ، لأنه كان قد قرر الانتقام منهم والتخلص من شرهم إذا دخل مصر .

ثم دالت دولة المماليك ، ودخل الفرنسيون مصر فى صيف ١٧٩٨ فقضوا على أسطورة المماليك فى ساعات ، وتطايرت بقاياهم هباءً تاركين المصريين فى وجه العدو ، فقبل المصرى التحدى مترددًا أول الأمر ، ثم واثقاً من نفسه بعد ذلك . .

وبينما كانت شراذم المماليك تحاول الاتفاق مع الفرنسيين على مقاسمتهم احتلال البلاد ، قام أهالى القاهرة بثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وساروا لحرب الفرنسيين بالهراوات والعصىّ ، فقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ، وأثبتوا أنهم أصحاب البلاد وأهلها الحقيقيون . ولقد استنكر عبد الرحمن الجبرتى ثورة أهل الحسينية على الفرنسيين ، لأن طول عشرته للمماليك جعلت جزءًا من نفسه مملوكيًا ، أو قل إنه - برغم ذكائه كان يأخذ بأخلاق الفقر الرذيلة التى ذكرناها ، ومنها الخوف والجبن والنفاق والتضحية بكل شىء فى سبيل سلامة الجلد . ولكن ثورة القاهرة هدت الكيان الفرنسى فى مصر ، فاتخذ رجال الاحتلال سياسة جديدة هى التقرب من المصريين وكسب ودّهم ، وبدءوا الحوار معهم فى « الديوان » والنظم الحديثة الأخرى التى استحدثها الفرنسيون وتحدث عنها رفاعة رافع الطهطاوى فى « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » فأحسن الحديث ، وكتابه هذا كله أمل وإشراق ، لأنه أحس أن البذرة قد أطلعت النبتة وأنها تشق طريقها إلى الهواء . .

ومضت أيام الفرنسيين ، ولكن المصرى رفض أن يعود إلى غياهب العصر التركى ، وما لبثنا إلا قليلا حتى رفعنا بأيدينا إلى العرش رجلا شق طريقه بملكته فأيدناه ، وبتأييدنا قام بإنشاء دولة عربية حديثة فاقت فى سنوات قليلة كل ما فعله غير العرب فى سنوات كثيرة ؛ وشقت النبتة الأرض ، وظهرت شجرة العربى الأصيل مرة أخرى إلى النور .

وحاول محمد على الأرناؤوطى وريث مئات السنين من الحكم الأجنبى أن يستجلب الجندَ من السودان ليكون له - هو أيضاً - جيش مرتزق ، فلم يوفق .

ونصحه الكولونيل سيف مستشاره العسكرى بأن يجند من المصريين فتردد ، ثم قبل وهو موقن بأن المصرى – أو « ابن العرب » ، كما كان يقول – لا يصلح للقتال . ولكن ابن العرب حطم الأسطورة وانتصر على التركى فى معارك كبرى – من نصيبين إلى كوتاهية – واحتل بروسة ووقف على أبواب الآستانة . ومن أغرب ما يحكيه مؤرخ فرنسى كتب كتاباً بديعاً عن « التاريخ الحربى لمحمد على وأولاده » أن محمد على كان يشعر بألم عندما تبلغه انتصارات المصريين على الترك ، مع أن المصريين كانوا يحاربون تحت رايته ! وعندما قص عليه ابنه إبراهيم أن المصريين الجرحى فى مستشفى أزمير غادروا أسرّتهم وذهبوا ليشتركوا مع زملائهم السائرين نحو بروسة أنكر الحكاية إنكاراً شديداً ، بل غضب على ابنه إبراهيم وشتمه قائلاً : « لقد أصبحت ابن عرب ! » وحسب أن هذه إهانة لا تعدلها إهانة ، ولكن إبراهيم لم يتأثر ، فقد كان لطول عشرته لجنوده المصريين – أو الفلاحين – قد أصبح ابن عرب بالقلب والروح .

وهؤلاء الفلاحون – أو أبناء العرب – هم الذين أنشأوا إمبراطورية مصر فى الحجاز والسودان أيام محمد على ، وإمبراطورية حفيده إسماعيل التى شملت وادى النيل كله من أوغندا إلى البحر المتوسط ، وضمت الصومالات وقبضت يد على باب المندب وباليد الأخرى على باب الخليج العربى فى أقصى جزيرة العرب شرقًا .

هنا ارتد العربى إلى معدنه الأصيل ، ونشرت شجرة العروبة فروعها وعادت تقاليد العسكرية العربية إلى الظهور فى ثوب حديث . ومن أوائل القرن الماضى قامت المدارس العسكرية المصرية ذات التقاليد الباهرة فأخرجت ضباطاً من الطراز الأول ، وفى أواخر أيام إسماعيل كان الجيش المصرى يقارب نصف مليون جندى ، وكان – بالفعل – من كبار جيوش العالم فى ذلك العصر . ولكن إسماعيل ابن إبراهيم لم يكن من نسيج أبيه ، بل كان من نسيج سلفه : عمه سعيد ، وهو نسيج ضعيف غير أصيل لحمته تركية وسداته أوروبية ، فاستمع لنصحائه من رجال الاستعمار الأوروبى – وكان ذلك الاستعمار فى أوجه – وأخذ يستخدم فى القيادات أتراكا وشراكسة ونمساويين وإيطاليين وإنجليزاً ، وحرص على ألا يسند قيادة كبرى

لمصرى خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى زوال عرشه ، حتى إمبراطورية مصر فى إفريقية عهد بها إلى ذئاب من أمثال صمويل بيكر ورودولف سلاتين واشفاينفورث وتشارلس جوردون ، فلم يكن لهم دأب إلا قطع الطريق على المصرى وإيقافه عند رتبة الضابط الصغير مهما بلغت ملكاته .

ومثل هذه السياسة كان الأوربيـون يتبعونها فى بقية بلاد العروبة التى أراد لها الحظ العاثر أن تقع تحت أيديهم ، لأن الأوروبى لم ينس أبداً أن العربى مقاتل عنيد إذا ملك أدوات القتال ، وكما كان المملوك يجرد المصرى حتى من السكين ، حرص الفرنسى فى الشمال الإفريقى على أن يجرد أهل المغرب من شبابهم المقاتل بنقلهم إلى معسكرات فرنسية لتدريبهم ، ثم إرسالهم إلى مستعمرات فرنسية بعيدة مثل الهند الصينية لمحاربة أهلها . ووقفت أوروبا كلها إلى جانب إنجلترا عندما تجردت للقضاء على ثورة أحمد عرابى ، ولم يهدأ لها بال حتى قضت على شوكة جيش مصر واحتلت البلاد ، وقامت بعد ذلك بالقضاء على الحركة المهدية وهى توأم الثورة العرابية . وتعاونت فرنسا وإسبانيا فى القضاء على حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ، بعد أن قضى الفرنسيون وجنود الفرقة الأجنبية على حركة المجاهد العظيم عبد القادر الجزائرى ؛ وأعلنت إيطاليا حرباً شعواء على الحركة السنوسية .

وهكذا عادت أسطورة العربى غير المقاتل إلى الظهور ، واطمأن بال أوروبا ، واجتهد رجالها فى تضخيم هذه الأسطورة وترويجها ، بحيث استقر فى عقول الناس أن العربى هو بالفعل إنسان غير مقاتل وغير قادر على احتمال مضانك الحروب ، وأن كل همه فى الحياة هو الاستمتاع والاسترسال فى الملاهى ، وأنه – لهذا – إنسان لا يخشى بأسه ، وأن أرضه – نتيجة لذلك كله – ينبغى أن تكون من حق ناس آخرين أو شعوب أفضل – فى رأيهم – تستطيع الانتفاع بأراضى العرب ومركزها الجغرافى الممتاز وما تضمه هذه الأرض من خيرات .

تلك كانت الفكرة عن العرب حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا طمع اليهود فى فلسطين ، ولماذا تمسكوا بها دون غيرها زاعمين أنها أرض الميعاد

بالنسبة لهم وأن ذلك منصوص عليه فى التوراة ، ولا حقيقة لشىء من ذلك ، وإنما الحقيقة أنهم حسبوا أن أراضى العرب أراض بلا صاحب ، لأن أهلها غير مقاتلين وهم – بالتالى – غير قادرين على الدفاع عنها ، فهى – على هذا – لقمة سائغة . .

وهذا يفسر لنا – أيضاً – لماذا كان الإنجليز يعدون العرب بأن ينشئوا لهم مملكة عربية كبرى ، تشمل الحجاز والشام وبقية أراضى الوادى الخصيب ، فى الوقت نفسه الذى أعطى فيه بلفور وعده المشهور لليهود فى الثانى من نوفبر ١٩١٧ .

لقد كانت مفاوضاتهم مع العرب لهواً وتسلية ، ريثما يتمكنون من خداعهم وإقناعهم بالانقلاب على الأتراك ، ثم تكون أرض العرب بعد ذلك قسمة بين إنجلترا وفرنسا واليهود

وهذه الفكرة – فكرة أن العرب شعب غير مقاتل وغير مستعد للدفاع عن أراضيه – هى التى جعلت الإنجليز يستهينون بثورة ١٩١٩ فى مصر ، وجعلت الفرنسيين لا ينظرون نظرة جدية لثورة سوريا عليهم ، ولم يقتنع هؤلاء وأولئك بأن العربى يضم فى إهابه رجل حرب من الطراز الأول إلا بعد أن هزت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيان الإمبراطورية البريطانية ، وبعد أن قامت تلك الثورة بتحدى الغرب وقوته الاستعمارية تحدياً لم يسبق له مثيل ، عندما أممت مصر قناة السويس وأسقطت بذلك هيبة الغرب ، وفتحت باب الاستقلال لشعوب إفريقيا وآسيا . هنا أحس الغرب أن العربى المقاتل قد عاد إلى الميدان ؛ وجدير بالذكر أن أوروبا لم تعرف طوال العصور الوسطى أعداء أخطر عليها من العرب والمسلمين ، حتى يمكننا أن نقول إن معظم تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى كان صراعاً مع العرب أولا ثم الأتراك العثمانيين ثانياً ، وإلى نهاية القرن الماضى كان البحر المتوسط كله ميدان صراع بين أوروبا من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى .

وتأكدت هذه الحقيقة عندما سار العرب فى طريق الوحدة وعقدوا العزم على استعادة كل حقوقهم من المستعمرين ، وقد تجلى ذلك فى ثورة الجزائر التى انتصر فيها شعب الجزائر الباسل ، بعد سبع سنوات من قتال مرير استشهد فيه نحو مليون شهيد جزائرى ، ووقف العرب جميعاً إلى جانب الجزائريين يساعدونهم

بأقصى ما استطاعوا .

كل هذا جعل الأوروبيين يعيدون النظر فى موقفهم من العرب ، ولكن الوهم القديم – وهم العربى غير المقاتل – ظل يراود نفوسهم فاجتهدوا فى تحطيم عزيمة العرب مستعملين فى ذلك إسرائيل ، فأعطوها من السلاح مالم يقدموه لأعز حلفائهم ، لا حبًّا فى اليهود ولكن كراهة للعرب . وصالت إسرائيل وجالت ، وانتهزت فرصة خلو يد العرب من السلاح الحاسم وكسبت انتصارات ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وظنت أن انتصارها سنة ١٩٦٧ نهاية الصراع بينها وبين العرب . وخلف خط بارليف وتحصينات الجولان – التى ظنوا أنها سور الصين – استناموا إلى النصر وأخذوا يرسمون بالاشتراك مع حلفائهم – خريطة الشرق الأوسط ، على اعتبار أن هذه المنطقة أصبحت منطقة نفوذ إسرائيل وحلفائها ، وأن أحداً فى المنطقة لن يرفع رأساً إلا بإذنها .

ثم جاء السادس من أكتوبر ، وإذا بالدنيا تنقلب رأساً على عقب . .

المصريون يعبرون قناة السويس فى ساعات ، ويقاتلون كأبسل ما يقاتل الأبطال . .

والجندى المصرى – الذى كانوا يحسبون أنه مجرد فلاح لا يفك الخط – يستخدم أعقد الأسلحة الحديثة بمهارة لم يصل إليها اليهود . .

وخط بارليف – الذى قالوا إن قوة ما على الأرض لا تستطيع أن تتخطاه – اقتحمه المصريون واستولوا عليه فى بسالة وتضحية وإحكام ، أعادت إلى الأذهان ذكريات اقتحام خالد بن الوليد « لحديقة الموت » المعقل الأخير لمسيلمة الكذاب أيام البطولات العربية الأولى . .

وتحصينات الجولان تتهاوى أمام فيالق الجيش السورى الباسل . .

وتصدعت أركان إسرائيل . .

واهتز كيان أوروبا كلها . .

لقد عاد العربى المقاتل الباسل إلى الميدان ، وبدأ يستردّ حقوقه الضائعة . .

واتحدت صفوف العرب وقلوبهم ، ووقفوا صفًّا واحدًا ، واستخدموا سلاح

البترول بمهارة أوقعت الغرب كله فى ذهول . .

فى كلمات قلائل : لقد تغير الوضع السياسى فى العالم كله ، عندما عاد العربى المنتصر إلى الميدان يوم ٦ أكتوبر وانتزع راية النصر وسار فى الطريق . .

وأخذت أمواج اليأس تتلاشى من قلوب العرب ، وأشرق عليهم عصر جديد .

عصر العربى الأصيل المقاتل الباسل صانع التاريخ . .

وفى كل ناحية من نواحى بلاد العرب سرت موجة النهوض ، وفتح العرب عيونهم على حقائق حاضرهم ومستقبلهم ، ووضعوا أيديهم على أسرار التكنولوجيا ، وعقدوا العزم على أن يستخلصوا آخر شبر من أراضيهم بقوة السلاح . .

تلك هى عبرة حرب أكتوبر ١٩٧٣ / رمضان ١٣٩٣ . .

إنها ليست مجرد نصر ، إنها ميلاد عصر جديد . .

عصر يعود فيه العرب إلى مكانهم فى صدارة الأمم ، وهو بالنسبة لأوروبا أمر بالغ الخطورة ، وبالنسبة لإسرائيل والصهيونية نهاية الحلم الكاذب ، وبالنسبة لروسيا تغير شامل فى ميزان القوى ، وبالنسبة لأمريكا حكم بضرورة إعادة النظر فى كل السياسة الأمريكية بالنسبة للشرق الأوسط ، على أساس أن هذه المنطقة منطقة العرب ، لا سيد غيرهم فيها ، ولا تنتقل فيها قدم عن قدم إلا بما يرون . .

لقد عاد العربى إلى مكانه الجدير به فى التاريخ ، وبدأت بعودته صفحة جديدة جداً فى تاريخ العالم كله . .